## كاتب الناس



بدأ الصادق النيهوم (1937 ـ 1994) رحلته في الكتابة ككاتب تنویری وجد نفسه فی مجتمع شبه أمى خارج من أتون الحروب و الأمراض والمجاعات.. وحتى الناس الذبن تحصّلوا على تعليم يسبط في الكتاتيب أو المدارس العربية والإيطالية وتمكنوا من القراءة والكتابة وشبغل بعض الوظائف الإدارية والخدميّة يعتبرون في المفهوم العام شبه أميين، فليس محو الأمية أن تتحول إلى إنسان يفكّ الحرف ويقرأه فقط، فالخروج من الأمية هو الخروج إلى الفضاء الشاسع من الثقافة.

من هنا ركز النيهوم على كتابة المقالة الأدبية الرؤيوية التى استخدم في صياغتها الكثير من الصيغ التلاغية ووظف فيها الكثير من مشكلات المحتمع متخذاً من شخصيات شعبية موجودة في الشارع قناعاً لقول ما يريد عبرها، وذلك عبر تحريكها درامياً داخل النص لتعبر قصصباً أو حوارياً أو حتىٰ تشكيلياً بواسطة رسم ملامحها وما يحيطها من واحهة يبئية تضعها في السياق وفي قلب الحدث سابرة العديد من القضاّيا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي تمس الإنسان في ليبيا والعالم معاشرة مثل شخصية الحاج الزروق الواردة في نصوصه.

الناس تقرأ للنيهوم لأنها تجد أنفسها داخل نصوصه. تشعر بأنها هي من كتبت المقالة وليس الصادق. تشعر بأن النيهوم قال ما أرادت أن تقوله لكن يعوزها الأسلوب واللغة والمنبر الصحافي والشجاعة.

لقد بذل النيهوم جهداً كبيراً في صياغة مقالاته لتوافق مساحة كبيرة من أمزجة المتلقين الذين خبرهم وعاش بينهم وتشربهم عن كثب. كان يكتب المقالة الواحدة عشرات المرات حتى يرضى عنها قليلاً وهو بالطبع كأي مبدع كبير لا يمنح نصه الرضا الكلي أبداً، لأن نصوصه متولدة ومتفجرة وكلما قرأ النص مجدداً تفتحت أمامه مسارب جديدة يمكن التعاطى معها إبداعياً، وكتابة المقالة عشرات المرّات من كاتب ميدع بحجم النيهوم ليس لديه مشكلات في النشير ومشبهور ومقروء جدأ سأعتبرها احترامأ للنفس وتقديساً للكلمة ولفن الكتابة وتمجيداً للقارئ المتلهف لعناق هذه الكلمات. سأعتبر تكرار إعادة المقالات من

أجل تجويدها وصقلها أكثر –من كاتب ولو حتى نطح برأسه المغموس في الحبر الورق لتمت قراءته– جهداً جباراً ذهنياً ويدنياً وزمنياً سيشكره دائما عشاق الأدب عليه.



الناس تقرأ للنيهوم لأنها تجد أنفسها داخل نصوصه، تشعر بأنها هي من كتبت المقالة وليس الصادق. تشعر بأن النيهوم قال ما أرادت أن تقوله لكن يعوزها الأسلوب واللغة والمنبر الصحافي والشجاعة. لقد بذل النيهوم جهداً كبيراً في صياغة مقالاته لتوافق مساحة كبيرة من أمزجة المتلقين الذين خبرهم وعاش بينهم وتشربهم عن كثب

النيهوم كاتب تنويري من جماعة الفن من أجل الحياة، وإن كان لديه فن من أحل الفن فسنجده متركزا فقط فى حياته الشخصية وفى طريقة لبسه وأسلوب معيشته. وهو رسول سلام وحب وتسامح. ولقد وجدت ذلك في الكثير من نصوصه الداعية إلىٰ التّفكير والتأمل خاصة في نصه القصصى بعنوان "حكاية" المنشور في العدد 95 من مجلة المؤتمر. في هذا النص استدعى مناضل اللاعنف المهاتما غاندى ووضعه صحبة مغزله الإنتاجي في قلب رقعة الشطرنج أثناء وطيس مباراة نهائية في كأس عالم

هذه اللعبة.

ولعل الإسقاط هنا يأتي بنا إلى حلبة الحياة والصراع الجاري فُيها بين النقيضين، الخير والشر، النور والظلام، الموت والحياة.. لقد صوّر على هذه الحلبة الواقع الآن وفى معظم فترات القرن العشرين... قرن الحرب الباردة والساخنة. قرن الحروب العالمية والاحتلالات الغادرة والمجاعات. قرن الدم من دون منازع.. قرن الحروب العالمية والإقليمية، الصراع بين السوفييت والأميركان على

قتل الآخر الآن.

القوة التي نسميها شعبياً "رومني ومن هنا التقط لنا النيهوم شخصية غاندي ووضعها في رقعة شطرنج العالم على مرأى من الله الذي نقول عنه جبينه حيث يقايضها العشب الأخضر

قسم النيهوم العالم إلى لونين ومنح كليهما قطع لعب متساوية وتركهما يلعبان ويتقاتلان أمامه ورمئ داخل هذا ، نرده الرابح وهو غاندي المنا شاهد العصر وزارع العصر بورود السلام والمحبة.

قرأت للنيهوم ووجدتني أمام كاتب ليبي كبير لا يسعك إلَّا أن تفخر بمنجزه الّفكري والإبداعي. لقد بذل هذا الكاتب كل دقيقة في حياته من أجل الإبداع، وكان ذكباً حدا فقد خرج من العمل بالسياسة التي ستحرق إبداعه أو علىٰ الأقل ستحوله إلىٰ صحافي نمطى مملّ مبكرا، علىٰ الرغم من ترحيب السياسة به وحاجتها إلىٰ مثل هذه العقول النظيفة للسير بها قدما والرقي بمستوباتها.

كزميله الروائي الكبير إبراهيم الكوني، ووضع كل جهده في تأسيس وإرساء لغة الحوار والنقاش والديمقراطية المباشرة بعيدا عن أجواء البروباغندا والثرثرة والغوغائية في كل قرائه ومجتمعه، محفزا العقل الجماعي والفردي لكل طالب معرفة. كان لا يمل من النقاش ولا يسخر من عقلية القارئ أو المحاور وسذاجته. فالسذاجة أحياناً تكون أرقئ درجات الصدق وأشف حالات الفطرة.

ثروات العالم. لقد وجد غاندي نفسه في قلب

حلبة الصراع بمغزله الذي سيضمد بقطنه وصوفه جراح الإنسان والذي سوف يصنع له من خلال خيوطه ثوياً من الحنان والسلام والدفء. لكن وجود غاندي في قلب رقعة الألم بمغزله لم يقنع القوى الغاشمة ومجانبن الدماء والنار فتم دهسه وسحقه والمرور علي جثته النحيلة وحرقه وترميده. فصار رفيسة للفرس ومداسأ للفيل ومسخرة للبيادق العرجاء والكسيحة.. وحتى القلاع والوزراء والملوك اقتربوا من غاندي السلام ووبخوه وبصقوا عليه وأصدروا أوامرهم الصارمة بتصفيته فوراً وبحرق مغزله حتى لا يتحول إلى شبهادة على قيره. والطريف أن هذه اللعبة تقتل غاندى ثم تعيد بعثه من حديد وإخراجه من صندوق القطع الميتة وتثبيته في قلب الرقعة والعبث يه وقتله. فالمياراة العالمية مازالت . حارية ولم تحسم ولم تنته ولن تنتهي أبدا، مباراة افتتحها الإنسان بجريمة قتل هابيلية أو قابيلية لست متأكداً من

غاندي الذي وضعه النيهوم في قلب معركة "الشطرنج" يمثل الإنسان البسيط المسالم الراغب في العيش بسلام، والراغب في التحرُّك داخل رقعة الحياة بحرية من دون أن يحركه أحد سوى ضميره الحليبي الشفاف. لقد قتل غاندي أكثر من مرة، وكلما حاول أن يتفاهم مع الظالمين بالتي هي أحسن قوبل بالتي هي أقبح.. قوبلُ بالقوة

أو أكسر قرنكُ" وكيف سيروم ويوافق غاندي على الجرائم والقتل والتدمير.. مباراتها مشتعلة مصوراً لنا أن الحياة رقعة شطرنج تلعب عليها مباراة شرسة يحرك أدوارها أرباب السلطة في هذا دائماً إنه يمهل ولا يهمل. لقد تم سحق غاندي وحرق مغزله وذبح عنزته التى ينتج من خلالها شرابه الدافئ بعرق وحبيبات الأرز والماء الذي يجمعه لها يومياً بيديه من دون الاستعانة بأي خدم

لقد فضل الابتعاد عن السياسة

كان يتهكم عبر الكلمات ليفضح مدلولاتها.. لقد كان مثل "غناوة علم أدبية" زاخرة بالعمق والتكثيف والخيال والخضرة والضوء الإبداعي المبهر المنبثق من شمس خير الكلام ما قل ودل. وكان النيهوم يحترم كل من يتحدث معه ويحترم المبدعين الذين جايلوه أو تعلم منهم. يجلس معهم في مقاهي طرابلس ويستمع إليهم ويتحاور معهم.



العين كتب الصادق النيهوم أعماله الحريئة في وقت مبكر، كان الوعي العام في العالم العربي لا يزال يعتقد أن هناك مظلوميات عديدة تختبئ في الأنحاء، هنا أو هناك، ملفات وصناديق سوداء مغلقة، لم يفتحها أحد حتى ذلك الحين. لكن الزمان تغير اليوم. فقد مرّت عقود ثلاثة بعد أن قال النيهوم إن الجامع صار بيت السلطة، وأن الإسلام ليس الإسلام الذي عرفناه. اليوم وبعد أن رأيناً دولة الخليفة المزعوم أبي بكر البغدادي "الملفّقة" بالمعنى ما بعد الحداثي التقنى العصري، من جهة، وتثبّت الوعى عند موروث متوحش من

كان النيهوم يحذّر من أن الأحزاب الدينية إن نجحت في تشكيل حكوماتها والبدء بمسار تطبيقً الشريعة، فإن أبوابا جديدة للجنة ستكون قد فتحت. وقد كان محقا في ذلك. كان كمن ينظر من

كان ساحرا في تمييزه ما بين الجامع والمسجد، وأن مكان العبادة يختلف عن مجمع الآراء ومدارسها، وقبة ديمقراطية ذلك الزمان التي مثلها الجامع. وقد صدّق الناس كلام النيهوم بالفعل، فُذهب كثير منهم ممن لم يكونوا يرتادون المساجد حتى أن بعضًا منهم لم يكونوا من المسلمين أساسا، لكنهم اختاروا المكان الوحيد الذي كانت تسمح سلطات الاستبداد للناس بالتجمع فيه، لبرمجتهم والسيطرة عليهم. لم تشعل بال النيهوم مسألة مكان الصلاة، أي البقعة التي

يتمظهر فيها ذلك الارتباط بالغيب. كان

يقول "في المسجد أو خارجه، يستطيع الراهيم الحبين المسلم أن يؤدي فريضة الصلاة. فالإسلام كاتب سوري يعتبر الكرة الأرضية بأسرها مسجدا مفتوحا للخلوة مع الله. لكن ثمة فرائض

أخرى لا يستطيع المسلم أن يؤديها إلا في

مؤتمر إداري خاص، له سلطة أعلى من سلطة الدولة، ومسؤول إداريا عن صياغة

القوانين. فالجامع ليس هو المسجد. وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل

جهاز إداري مسؤول عن تسيير الإدارة

حتىٰ تلك اللحظة كان من سرق

الجامع، هم رجال الدين والمتواطئون

معهم من رجال السلطة. لكن النيهوم لم

يدر أن آخرين غيرهم سينهجون النهج

ذاته، حين تتاح لهم الفرصة، لينقضوا

على الجامع بدورهم. ومنه سيعيدون

مشروع برمجة الناس وغسل أدمغتهم.

لربما كان فكر مليا في إضافة آلية أكثر

تعقيدا لما اقترحه حين اعتبر أن الإسلام

هو من اكتشبف مفهوم "الشبعب". ويا لها

من فكرة! إذ لا يختلف اثنان على الدور الكبير الذي لعبه الإسلام في تحرير

الناس من العبودية، لكن بعض ورثة

الفكر لم يأخذوا الناس إلىٰ آفاق أقل

إنهم شرائح من ضحايا الأسر الأول،

الحديث للكلمة، والتي تستند إلىٰ المنجز

جهة أخرى، بات من الصعب أن يكون الذي رسم ملامحه النيهوم بدقة وعناية. النيهوم صوتا وحيدا فريدا في صحراء وهكذا لم يتغير شيء وزاد عدد السلطات سلطة ثالثة، بعد رجال الدين والاستبداد. من "اللغة الساكتة". لتفرخ مكنة المظلومية نمطا حديدا من المستبدين. ويتنا نرى المرشد يعتلي منصات الحرية والديمقراطية ليعلن انتصار الثورات. لم ير النيهوم هذا المشهد. ولو رأه

نافذته إلى المستقبل.

رأى النيهوم أن يوم الجمعة كان المؤتمر الشعبي العريق في تاريخنا. وهو لا يجانب الحقيقة في ذلك، حين كان يوم الجمعة جزءا من ثقافة عامة محفوفا بمفاهيم أخرى كالمروءة والجرأة على قول الحق والتكافل الاجتماعي، لكن هذا كله لم يعد موجودا اليوم، فالمسلم يذهب

إلىٰ ذلك المؤتمر "يوم الجمعة" أعزل من كل تلك العناصر التي كانت تقويه وهو ذاهب إليه في الماضيّ. لن يجرأ على رفع صوته مقاطعا الخطيب بأنه يقول كلاما فارغا، فهناك من ينتظره قرب المنبر أو على الباب. وإن لم يفعل رجال الأمن هذا، فسيتبرع مصلون كثر يجلسون بجانب المسلم ذاته، ليسلموه بأنفسهم إلى سلطة



حتى تلك اللحظة كان من سرق الجامع، هم رجال الدين والمتواطئون معهم من رجال السلطة. لكن النيهوم لم يدر أن آخرين غيرهم سينهجون النهج ذاته، حين تتاح لهم الفرصة، لينقضوا على الجامع بدورهم

بعد النيهوم كان الدور الإداري للجامع قد تحول وتحول. حتى أصبح إكسسوارا مرافقا لبقية أشكال الهيمنة. ولم يعد المؤتمر الشعبى سوى مصيدة لآخرين يلتقطون من خلال شبكها طرائد سيرسلونها إلى الجنة بطريقتهم هم.

اعتقد النيهوم أن الجامع هو المرادف الموضوعي العربي لتمثيلات الحرية في الغرب. وهكذا بقي أصوليا رغم معارضته للأصولية. كتب يقول إن "الإسلام هو أن يرى منه حقيقة اتجاهه منذ أول لحظة، إن القرآن ليبدو حقًا نورا أضاء العقل الإنساني فجأة، وتركه يرى ما لم يكن بوسعه أن يراه، وإن نقلة الحضارة القادمة سوف تتم في المكان الذي تقع فيه اليقظة على أوسع نطاق ممكن. وليس ثمة مانع واحد من أن تقع اليقظة

في أرضنا؛ لكنه أيضا ليس ثمة ضمان و أحد على أنها ستقع فيها دون جهد من

الصادق النيهوم مفكر قرأ الماضى وتنبأ بحريق المستقبل

حسنا. لا مانع من أن يكون الجامع منطلقا للحرية، لكنها تبقىٰ رهينة عوامل عديدة أولها الوعي الجماعي. فمن ينظر إلىٰ الجامع كما نظّر إليه النّيهوم؟ ومن يستطيع أن يجرده من قداسته وينزل الخطيب عن المنبر حين يزل لسانه بما لا يرضى الضمير ولا الشعب؟ لا أحد.

غير أن صدمة ما طرحه النبهوم لا تزال تتفاعل. فكثير من المثقفين اللادينيين أنفسهم ينطوون على قناعات تقديسية تمنعهم من التفاعل مع الجامع ويوم الحمعة بحرية وانطلاق. بل يبقى داخلهم يعتمل فيه وعيٌ متطرف، ذكوري وتقليدي ومحافظ، رافض للحداثة من جذورها. مع أنه بعتمرها كقبعة أو يرتديها كثياب صمّمت في مراكز حضارية بعيدة.

مغامرة النيهوم في أعماله العديدة الفكرية أو الروائية منها، مغامرة بدأت معه، لكنه افتتحها وحسب، ولم يسدل عليها ستارا من الأجوبة. كان بارعا في طرح الأسئلة. ولم يجهد للعثور على يقينيات نهائية. غير أن تراث النيهوم تراث جدير بالتفكيك ليس كلما مرت ذكرى رحيله، بل في كل حين. فعلامات استفهامه مازالت تتفجر أمام أعيننا كل لحظة. فالرمز الذي اشتغل عليه النيهوم، يتحول اليوم إلى سلعة متاحة للجميع للتنقيب والحفر، ونطاق حرية الوصول إلىٰ المعرفة والتعبير عنها آخذ في الاتساع بشكل كوني يتيح للمليارات من البشر تقديم تفسيراتهم له.

ن يدقق في عبارات النيهوم سيجدها تتخوّف أيضا، من أن تنطلق من أرضنا تلك النقلة الحضارية المنشودة مجددا. فهي انطلاقة بلا ضمانات حسب النيهوم. ولكن متى كان التاريخ يعطى ضمانات مسبقة لأحد؟ لاسيما لأولئك الذين لا يكلفون أنفسهم عناء قراءته

## الفيلسوف الذي ذهب وترك الأسئلة عارية



أيضًا في سلوكه الحياتي.

كان منتميا للأرض وللإنسان،

هنا وهناك، ومسلما "علمانيا" يؤمن

بأن الحياة بمعناها الوجودي هي في

إذا كانت الفلسفة في درجتها العلمية النظرية، مجرَّد تفسير للفكر والتاريخ، فإن الصادق النيهوم الذي امتهن حياة اللغات للبحث في أصولها ومعارفها الحاضرة والغائبة، ومن تخصُّصه النادر في "مقارنة الأديان"، كان

سالم الهنداوي

الفيلسوف الذي ظهر في شمال أفريقيا في النصف الأول من القرن الماضي، ليملأ الدنيا ضجيجا بأفكار لم تكن جديدة في حداثتها، كما لم تكن قديمة في معيشها النظري والإنساني. فهذا المفكّر التنويري، بامتياز العقل والفكر، لم يكن استشراقيا في فكره، ولا شرقيا في معتقده الديني، ولا غربيا

في مجلة "الناقد" التي بدأت مسيرتها الثقافية المتميّزة بمقالاته وانتهت بمقالاته، الأثر الكبير في ظهور مفهوم "النقد الديني التفكيكي" نتاج العقل

اعتناقها للدين. ولقد كانت ثمرة بحثه الطويل في مقارنة الأديان هي "تحرير الإسلام" من سلطة الإسلاميين الذين جعلوه ممكنا لهم في الدنيا والآخرة، وعسيرا وصعبا علئ أمة الإسلام التى فقدت مبدأ الشورى في تاريخ الخلافة، وخسرت الديمقراطية في تاريخ

ولعل "موضوعة الجامع" في نقاشها الموضوعي التي عرضها النيهوم في سلسلة فكرية من الطروحات النظرية، قد شغلته كما شغلت الكثيرين في ردودها المتباينة لأكثر من عشرين سنة، وهي "الموضوعة الفكرية" التي كانت تأسست نهاية الستينات مع نشر دراسته المشبهورة أنذاك "العودة المحزنة إلى

لقد كان لحضوره الفكري العربي

الإسلامي في أصوله المعرفية قبل حقبة "الخلافة و الفتنة"، تلك الحقية التي قادت الإسلام إلى الاختلاف في شكل العقيدة، كما قادت الإسلام إلىٰ الفرقة، في صميم هذه العقيدة.

ولعله كان المفكر العربى الأبرز الذي أثار قضية "الجامع" وسأل المسلمين: من سرق الجامع وأين ذهب يوم الجمعة؟ وهو سؤال حُر كان يُمكن لأي مسلم أن يسأله يوم الجمعة في الجامع، لكن "الديمقراطية" التي فتحت مدرستها السياسية المزوّرة في البرلمان، صادرت "الشورى" التى كانت مدرسة المسلمين السياسية في الجامع.

إن سجالات الصادق النيهوم الفكرية وردود أفعالها المتباينة في المنابر العربية خلال العقدين الماضيين، جعلت منه "الكاتب" الأكثر أهمية في نقده "الثقافة الإسلامية".

بوفاته انتهت مجلة "الناقد".. وبوفاته لم تنته معارك "الناقد" الكبير الذي طرح سؤال الناس لأكثر من نصف

قرن حول البحث عن مكان ومكانة المسلم في الإسلام. وإذا كانت الآراء قد اختلفت حول فكره التنويري، فإنه استطاع أن يثق بتلك المعارف التاريخية الغابرة ويعمل

علىٰ تفكيك رموزها التي جعلت منه مفكّرا مختلفا، وعن جدارة، في زمن "الفتوحات السياسية" التي صادرت حق "الشورى" في الجامع، من أجل ديمقراطية 'البرلمان".. وهي المعضلة السياسية التي قادت إلى الاختلاف عبر التاريخ، وكانت سببا رئيسا في ظهور ثقافة الأصولية الدينية ونشوب التطرُّف الإسلامي في المجتمعات الإسلامية.

ولقد رحل الصادق النيهوم عن دنيانا مبكرا قبل أن يصل إلىٰ خاتمة مقاله البحثى في نقد "الفكر الديني" والمساهمة في تحرير الإسلام من الأسر، ولقد كان لغيابه قبل الفجر تحديدا، علامة فارقة في مشوار حياته وفكره، ومحض سؤال يتكرَّر في الوجود عن موضوع لم يكتمل، ولن يكتمل من الأساس.